**جامعة وهران 2**

**كلية العلوم الاجتماعية**

**قسم علم الاجتماع والأنثروبولوجيا**

**شعبة: علم الاجتماع**

**وحدة: التغير الاجتماعي**

**أ.د عمار يزلي**

**الدرس 10**

**النظرية الحلدونية في التغير والتطور**

**1/ العصبية القبلية**

"العصبية القبلية" كمفهوم سوسيولوجي خلدوني[[1]](#footnote-2)، يمثل محرك التغير، مثل ما هو الشأن في ما يسميه "كارل ماركس" بـ"الصراع الطبقي". كلا الرجلين يتحدثان عن التناقض داخل المجتمع والتاريخ والذي من شأنه أن يدفع نحو التغير الاجتماعي وتبدل الأحوال الاجتماعية والدول والمؤسسات.

ينحت ابن خلدون (مولود في 732 هـ)[[2]](#footnote-3) مفاهيمه ومصطلحاته من القرآن، باعتباره آية في اللغة العربية والتي من خلالها يمكنه توصيل المصطلح. فالعصبية عنده مرتبكة بعلاقة القرابة والنسب وتشكل النعرة القبلية، ذلك الشعور بالانتماء والارتباط بنسب واحد يجعل من الجسم الاجتماعي موحدا إزاء جسم آخر من بطن ونسب آخر ولو كان من ذوي القرابة المتباعدة. فالنسب إلى غاية الجد الرابع، ثم بعدها ترتبط العصبية بجد آخر غير الجد الأول..فتنشأ عصبية قبلية ضمن العصبة المجتمعية الواحدة، وهذا بناء على كبر وتطور حجم القبيلة التي تشرع في الانقسام بناء على هذا المبدأ وهو عين التناقض والتعارض المؤدي إلى الاختلاف والخلاف ثم الصراع ثم التحول والتغير.

كما أسلفنا الذكر، العصبية عند ابن خلدون مشتقة من الآية "..إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ" (يوسف/8)، تماما كما نحت مصطلح "الملك العضد" في توصيفه لما يسمى "الخلافة" ما بعد الخلافة الراشدة، والتي يراها أن "ملك عضد" تعتمد على العصبية والامتداد القللي والنسب لا "خلافة لرسول الله"، والعبارة مشتقة هي الأخرى من القرآن الكريم :" قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ "(القصص/35)

### "فالعصبية هي التعبير النفسي والعملي عن الوجود الطبيعي (البيولوجي) للإنسان والجماعة، وحالما تبلغ مرامها في السلطة والدولة، فإنها تضمحل وتتلاشى في بنية وأنساق الإبداع الثقافي والحضارة، أي أنها تتحول إلى ميدان ما وراء الطبيعة. وبهذا المعنى، فإن العصبية هي القاعدة المادية والاجتماعية الأساسية لقوة الروح الجماعي والأخلاقي والمعنوي للأتباع. من هنا توكيد ابن خلدون على أن الذين يفقدون عصبيتهم عادة ما يكونوا سريع الانقياد والخضوع"[[3]](#footnote-4)

### الشعور بالانتماء لقبيلة، بقدر ما كانت كبيرة تعطي الاطمئنان بالقوة وبالغلبة، كون اللحمة الجماعية والرباط القرابي، يكون محفزا للغالبة والاستقواء أكثر، لكن، نفس القانون، قد يكون عامل تفرقة وتقسيم للقبلية والبطن القبلي الكبير حيث تحدث نتيجة الضعف وتلاشي الحمية القبلية وخوف العصبية إلى دخول القبيلة في صراع على الملك والمصالح والامتيازات ونسيان اللحمة الجماعية التي مكنتهم من التطور والوصول غلى ما هم عليه كدولة أو سلطنة أو إمارة.[[4]](#footnote-5)

### ابن خلدون، أسس لنظريته في التطور "الدائري" كما سنلاحظ فيما بعد في حديثنا عن تشكل وتطور الدولة واندثارها، على أساس دراساته السلطانية للوثائق الإدارية والمؤلفات والدواوين، ولكن أيضا صلاته الوثيقة مع مختلف الدواوين السلطانية في بلاد المغرب والأندلس وملاحظاته الميدانية وعلاقته مع الفاعلين في الدولة والمجتمع وقتئذ[[5]](#footnote-6).

### تعتبر مساهمة ابن خلدون في نظريات التطور، متميزة بالنظرة إلى المنهج المتبع عنده والذي لا يقل علمية عن مناهج الغربيين خلال وما بعد عصر الأنوار، فهو وليد التطور العلمي في الأندلس ومعاصر لكبار الفلاسفة والمؤرخين وقتها رغم أنه جاء في نهاية العصر الذهي للحضارة العلمية بالأندلس. فقد "أشار معظم الباحثين أن ابن خلدون هو مؤسس علم الاجتماع، حيث استطاع أن يسبق العلماء المؤسسين لعلم الاجتماع الغربي المعاصر بسنوات طويلة، والذين كان منهم "أوغست كونت Auguste comte)) و "هربرت سبنسر": H.Spencer)) ودركهايمDurkheim)) و"ماكس فيبر"Max weber))، كما يرى المؤرخ البريطاني "آرنولد جوزيف توينبي" (Arnold J Toynbee)[[6]](#footnote-7) أنّ تفوّق ابن خلدون ظهر بشكل كبير في مقدمته المشهورة فيما يظهر لقارئها من عمق في البحث، وقوة في التفكير، لاسيّما أنّه استطاع أن يكتب عن علم العمران البشري بطريقة لا يمكن التميز بينها وبين فن التاريخ، وذلك لأنّ فهم القواعد والأصول لا يتم إلّا بعلم العمران، حيث يُعرَف عن عِلمَي العمران والتاريخ تقاطعهما في الكثير من المناحي، كما تقاطع المنطق والفلسفة"[[7]](#footnote-8)

**2/ نظرية الدولة**

العصبية القبلية عند ابن خلدون هي أساس تشكل الدولة والعمران عبر الصراع بين البداوة والحضر، حيث يرى أن البداوة بعصبيتها القبلية سرعان ما تخفت مع تطور العمران والمدنية." ولا يرى ابن خلدون قيام الحياة الاجتماعية إلا بالدولة، ويقول: "الدولة والملك والعمران (أي الاجتماع) بمثابة الصورة للمادة، وهو الشكل الحافظ بنوعه لوجودها، وقد تقرر في علوم الحكمة أنه لا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر، فالدولة دون العمران (الاجتماع/المجتمع) لا تُتصور، والعُمران دون الدولة والملك متعذّر؛ لما في طباع البشر من العدوان الداعي إلى الوازع"؛ فمهمة الدولة حماية المجتمع وأفراده، والمجتمع هو أساس الدولة.

ولاحظ ابن خلدون أن الدول تمر بعدة تطورات من ناحيتين هما: الأحوال العامة من السياسية والاقتصاد والعمران والأخلاق، والتطورات التي تحدث من ناحية العظمة والقوة والاتساع. ويقرر أن كل دولة تنتقل بين خمسة أطوار هي: الظفر، والانفراد بالمجد، ثم الفراغ والدعة، ثم طور القنوع والمسالمة، ثم الإسراف والتبذير"[[8]](#footnote-9).

لهذا، فهو يرى أن الدولة لها عمر مثل عمر الإنسان، حيث يمر الإنسان بثلات مراحل: مرحلة الشباب، مرحلة الكهولة ثم الشيخوخة ومنه الفناء بالموت، عير دائرة مغلقةـ لتؤول الحياة إلى الأحفاد والورثة ضمن العصبية القرابية أو تنقل إلى عصبية أخرى وملك آخر. فالدولة تمر حسبه بثلاث مراحل، تمثل أجيالا، كل جيل يعمر نحو 40 سنة، بالمحصلة، الدولة تعمر 120 سنة، ثم تسقط لتتأسس بعدها سلطة جديدة من نسب وقرابة وعصبية جديدة، وهذا ملا لاحظناه عندما تحدثنا عن النظرية التطورية الدائرية لدى ابن خلدون و"شبنجلر" و "فيكو" وغيرهم. غير أن ابن خلدون، رغم أنه لم يتحدث لا عن التطور الدائري ولا اللولبي ولا الخطي، إنما تحدث عن أجيال التي تعتبر دورات حياة طبيعية بيولوجية، مما أسقط ذلك على الدولة ككيان إنساني معنوي. هذه الأجيال، تمر هي الأخرى ب5 أطوار كما يسميها، بمعنى أنها دورات اصغر ضمن الدورات الأوسع التي هي ثلاثة أجيال: طور الظفر، الانفراد بالمجد، ثم الفراغ والدعة، ثم طور القنوع والمسالمة، ثم الإسراف والتبذير. "ويربط ابن خلدون أطوار الدولة الخمسة بثلاثة أجيال فقط، فالجيل الأول يقوم بعملية البناء والعناية، والجيل الثاني يسير على خطا الجيل الأول من التقليد وعدم التجديد، أما الجيل الأخير فيمكن تسميته بالجيل الهادم، "فالدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص"، على حد تعبيره، فبعد البناء والعرق في زمن الجيل الأول، تتحول الدولة إلى الاستقرار والهدوء على يد الجيل الثاني، وتبدأ المنشآت الحضارية والعمرانية بالبزوغ، لكن في هذه المرحلة تنزلق الدولة إلى الاستبداد وحكم الفرد. فبعدما كان الجميع يشترك في الحكم بشكل أو بآخر في الجيل الأول المؤسس للدول والحضارات، تنتقل إلى "انفراد الواحد وكسل الباقين عن السعي فيه، ومن عزّ الاستطالة إلى ذل الاستكانة، فتنكسر سورة العصبية بعض الشيء، وتؤنس منهم المهانة والخضوع"، وكما تكون "العصبية" مسئولة عن القيام والديمومة، فإنها أيضا السبب الأبرز للسقوط والانحدار، ويعزو ابن خلدون الضعف والسقوط إلى عدة عوامل أهمها الترف والانغماس في الملذات."[[9]](#footnote-10)

فالدولة إذن عند ابن خلدون، كيان معنوي لكن إنساني، عمرها عمر الإنسان لأنها تتشكل بالإنسان وعقل الإنسان وعمل الإنسان الجماعي والفردي.

كما ذكرنا سالفا، ينحت ابن خلدون مفاهيمه ومصطلحاته الاجتماعية من النص القرآني وعربية القرآن: فرقم 40،[[10]](#footnote-11) الذي هو عمر الجيل، أو ثلث عمر الدولة والإنسان حسبه، يقترضه من الدورة البيولوجية الزمنية المنصوص عليها في القرآن في أكثر من موقع ومناسبة ودلالة، منها :".. حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي" (الأحقاف/15)، التي تنص على مرحلة عمرية يكتمل فيها النمو الفكري والعقلي وتعتبر نهاية الشباب وبداية الكهولة. لهذا نرى أن معظم الدساتير العالمية تنص على أن الرئيس يكون عمره 40 سنة فما فوق، وهذا كون العلماء التجريبيين يربطون هذا العمر بالذات باكتمال نمو الدماغ بلوغ سن البلوغ، حتى أنه في الآية هناك فعل "بلغ"..الذي يفيد البلوغ الجسدي والفكري.(le haut stade de la maturité).

فسن البلوغ عن الفرد، هو سن البلوغ عند جيل من حمن الدولة، فكل جيل يمثل مرحلة عمرية، وتنتهي دورة الوفاة عند الفرد في أقصى مدة هي 120 سنة، وهو أقصى عمر الدولة قبل أن يدب في مفاصلها الوهن وتنخر بنيتها الاجتماعية الصراعات بسبب ما ذكرنا سابقا من تحول وتغير في الطباع وممارسات داخل بنية ووظائف الدولة والمجتمع.

1. ينظر: عمار يزلي: القبيلة، الفصاء والمعتقد، بحث في تشكل عناصر الهوية المغاربية. دار لالة صفية. وهران. 2016، ص 127 [↑](#footnote-ref-2)
2. <https://mawdoo3.com/%D9%85%D9%86_%D9%87%D9%88_%D8%A7%D8%A8%D9%86_%D8%AE%D9%84%D8%AF%D9%88%D9%86> [↑](#footnote-ref-3)
3. [**http://www.albadeeliraq.com/ar/node/2785**](http://www.albadeeliraq.com/ar/node/2785) [↑](#footnote-ref-4)
4. يمكن العودة إلى كتاب: محمد عابد الجابري: فكر ابن خلدون:العصبية والدولة، معالم نظرية خدلون في الترايخ الاسلامي. تحميل الكتاب على الرابط:

   <https://foulabook.com/ar/book/%D9%81%D9%83%D8%B1-%D8%A7%D8%A8%D9%86-%D8%AE%D9%84%D8%AF%D9%88%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B5%D8%A8%D9%8A%D8%A9-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%88%D9%84%D8%A9-pdf> [↑](#footnote-ref-5)
5. <https://www.univ-chlef.dz/ratsh/la_revue_N_12/Article_Revue_Academique_N_12_2014/Lettre_philosophie/article_06.pdf> [↑](#footnote-ref-6)
6. <https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D8%B1%D9%86%D9%88%D9%84%D8%AF_%D8%AA%D9%88%D9%8A%D9%86%D8%A8%D9%8A> [↑](#footnote-ref-7)
7. <https://mawdoo3.com/%D9%85%D9%86_%D9%87%D9%88_%D8%A7%D8%A8%D9%86_%D8%AE%D9%84%D8%AF%D9%88%D9%86> [↑](#footnote-ref-8)
8. [https://www.aljazeera.net/news/cultureandart/2019/6/4/%D8%A8%D8%B3%D8%A8%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%B3%D8%AA%D8%A8%D8%AF%D8%A7%D8%AF-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%B3%D8%AA%D8%B9%D8%A7%D9%86%D8%A9-%D8%A8%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%AC%D9%86%D8%A8%D9%8A#:~:text=%D9%88%D9%84%D8%A7%D8%AD%D8%B8%20%D8%A7%D8%A8%D9%86%20%D8%AE%D9%84%D8%AF%D9%88%D9%86%20%D8%A3%D9%86%20%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%88%D9%84,%D8%A7%D9%84%D9%82%D9%86%D9%88%D8%B9%20%D9%88%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B3%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%A9%D8%8C%20%D8%AB%D9%85%20%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%B3%D8%B1%D8%A7%D9%81%20%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%A8%D8%B0%D9%8A%D8%B1](https://www.aljazeera.net/news/cultureandart/2019/6/4/%D8%A8%D8%B3%D8%A8%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%B3%D8%AA%D8%A8%D8%AF%D8%A7%D8%AF-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%B3%D8%AA%D8%B9%D8%A7%D9%86%D8%A9-%D8%A8%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%AC%D9%86%D8%A8%D9%8A#:~:text=%D9%88%D9%84%D8%A7%D8%AD%D8%B8%20%D8%A7%D8%A8%D9%86%20%D8%AE%D9%84%D8%AF%D9%88%D9%86%20%D8%A3%D9%86%20%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%88%D9%84,%D8%A7%D9%84%D9%82%D9%86%D9%88%D8%B9%20%D9%88%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B3%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%A9%D8%8C%20%D8%AB%D9%85). [↑](#footnote-ref-9)
9. [https://www.aljazeera.net/news/cultureandart/2019/6/4/%D8%A8%D8%B3%D8%A8%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%B3%D8%AA%D8%A8%D8%AF%D8%A7%D8%AF-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%B3%D8%AA%D8%B9%D8%A7%D9%86%D8%A9-%D8%A8%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%AC%D9%86%D8%A8%D9%8A#:~:text=%D9%88%D9%84%D8%A7%D8%AD%D8%B8%20%D8%A7%D8%A8%D9%86%20%D8%AE%D9%84%D8%AF%D9%88%D9%86%20%D8%A3%D9%86%20%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%88%D9%84,%D8%A7%D9%84%D9%82%D9%86%D9%88%D8%B9%20%D9%88%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B3%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%A9%D8%8C%20%D8%AB%D9%85%20%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%B3%D8%B1%D8%A7%D9%81%20%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%A8%D8%B0%D9%8A%D8%B1](https://www.aljazeera.net/news/cultureandart/2019/6/4/%D8%A8%D8%B3%D8%A8%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%B3%D8%AA%D8%A8%D8%AF%D8%A7%D8%AF-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%B3%D8%AA%D8%B9%D8%A7%D9%86%D8%A9-%D8%A8%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%AC%D9%86%D8%A8%D9%8A#:~:text=%D9%88%D9%84%D8%A7%D8%AD%D8%B8%20%D8%A7%D8%A8%D9%86%20%D8%AE%D9%84%D8%AF%D9%88%D9%86%20%D8%A3%D9%86%20%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%88%D9%84,%D8%A7%D9%84%D9%82%D9%86%D9%88%D8%B9%20%D9%88%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B3%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%A9%D8%8C%20%D8%AB%D9%85) [↑](#footnote-ref-10)
10. ينظر: عمار يزلي: القبيلة، الفضاء والمعتقد. مرجع سابق. ص ص: 169 ـ 171 [↑](#footnote-ref-11)